حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا *
1792 – 1492

مؤلف هذا الكتاب غير دخيل على التاريخ ، فقد عرف بأبحاثه التي تناولت حياة المغرب العربي والجزائر بالذات ، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، غير أن المرء يحس بأن أحمد توفيق المدني قد التزم بمبادىء (كليو) فى هذا الكتاب أكثر منه فى كتبه السابقة . ولعل ذلك يعود الى السن والى طبيعة الموضوع ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن المدني يجد نفسه هنا متمرسا ، مطلعا ناضجا فى (ملحمة) تاريخية دامت ثلاثة قرون بين منطفتين يفصلهما أكثر من حاجز ومع ذلك يربطهما أكثر من تاريخ . وهنا يجد المدني ضالته فيكتب التاريخ لا على أنه شيء بارد بعيد ماض ولكن على أنه قطعة من وجوده تنتفض بالحرارة والآنية .

وقبل أن يكون « حرب الثلاثمائة سنة » كتابا فى التاريخ فهو عمل تقدمت به صناعة التاريخ الجزائرى أشواطا ، فالمؤلف يعرف التاريخ بأنه « عرض وتحليل ، وتعليل وحكم » ويعرف المؤرخ الحق بأنه «حاكم نزيه حر الضمير ، يدرس الوثائق والمستندات ، ويستخرج الحقائق من بين النصوص ، ويستمع بامعان الى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء .. فاذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعا ، أصدر حكمه عادلا ، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة » بتعبير آخر ان المؤلف يلح ، نظريا على الأقل ، على الموضوعية التي هي طريقة المؤرخ الكفء فى رحلته عبر

* بقلم احمد توفيق المدني ، ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1968 ، بيبلوغرافية خرائط ، 533 ص + ج .

النصوص والوثائق والبيئة والملابسات الشخصية والسياسية والاجتماعية لموضوعه . بل يتوسع المدني فيرى « العالم وحدة » ويرى ضرورة دراسة العصر كله لفهم الحادث الصغير الذي يتناوله المؤرخ .

من عنوان الكتاب ندرك أن موضوعه عسكرى ـ دبلوماسي ـ سياسي ، ومع ذلك فان المدني يلخص الأسباب التي دفعته لكتابة مؤلفه فى ثلاثة : ان الفترة التي يغطيها شهدت « ميلاد الدولة الجزائرية الحقيقية ، لأول مرة فى تاريخنا » ، ولأن هذه الدولة جاءت « نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء » ، ثم لتصحيح الفكرة الخاصة «بتدخل الأتراك فى هذه المعركة الحاسمة » .

وفى هذا الصدد يؤكد « انني لست متعصبا للأتراك ، ولا أنا متعصب ضدهم حسبما جرت به تقاليد الكتاب العرب فى العصر الحديث » كما يؤكد « انني لست متحاملا على الأسبان » ولكن هناك فرق بين التخطيط والتطبيق ، ورغم أن المؤلف يبدي شجاعة فائقة فى العمل بهذا الرأى فانه يبدو أنه لم يستطع أن يتخلص من شيء كان قد نما معه ، وهو روحه الثائرة ، وأسلوبه السياسي ـ الصحفي وأحكامه الواثقة من نفسها . « فالتاريخ لهذه المعمغة (الصراع بين الجزائر وأسبانيا) القاسية الطويلة بأكثر ما يمكن من الصراحة ومن التفصيل ، أنما هو واجب مفروض » (صص 7ـ8) .

وان نظرة الى محتوى « حرب الثلاثمائة » ستعطي فكرة كافية عن اهتمامات المؤلف ، فبعد تمهيد طويل عن الثلاثة قرون التي سبقت صلة الجزائر بالعثمانيين يقسم بقية الكتاب الى 19 فصلا تتناول أسباب وصبغة العدوان الأسباني ، وحالة هذا العدوان قبل ظهور العثمانيين ثم بعد ظهورهم ، ورد الفعل للعدوان ، وشخصية خير الدين ، وعلاقة لأسبان بدولة بني زيان ، وحملة شارل الخامس (شارلكان) ضد

الجزائر ، ودور حسن بن خير الدين وشخصية صالح رايس ، وجهاد قلش علي ، وموقف الشعر الجزائري والنظام الأسباني فى وهران ، وانقاذ وهران من الأسبان ، ثم عودة الأسبان ثانية وانتصار الجزائر الكبير ، وتحت كل فصل عناوين فرعية نظمت بطريقة مدرسية تساعد القارىء المتسرع على العثور على ما يريد .

ولكن ضخامة العمل والاخلاص فى البحث لا يكفيان لكتابة التاريخ، اذ لا بد للمؤرخ من وسائل تساعده وتضىء له الطريق ، وهناك مراجع نخص الفترة التي تناولها الكتاب غير مذكورة ضمن مراجعه مثل « غزوات عروج وخير الدين » و « الزهرة النيرة » و « رحلة محمد الكبير » و « التحفة المرضية » . ونلاحظ كذلك أن ذكر المراجع لم يكن منظما بطريقة مفيدة . فقد جرت العادة أن تذكر المخطوطات مصحوبة باسم المكتبة أو المكان الذي توجد فيه وتاريخها ونحو ذلك مما يساعد الباحثين الآخرين ، ولكن المؤلف لم يتبع ذلك . ففي ذكر « تاريخ باشوات وعلماء الجزائر » لحسين بن المفتي يكتفي بالقول بأن مسيو دلفان قد ترجمه للفرنسية ونشره بالمجلة الآسيوية ، دون ذكر رقم ولا تاريخ ولا مكان المخطوطة ، ودون الاشارة الى تاريخ وعدد وصفحة المجلة الآسيوية ، ورغم أن المراجع الفرنسية أكثر عددا من المراجع العربية فانها أيضا تفتقر الى التنظيم . ولعل أهمية الكتاب تجعل استعمال الهوامش شيئا ضروريا . فهناك نقول وآراء للغير ، ومناقشات ، وكلها تحتم الاشارة الى المصادر التي أخذت عنها ، ولكن المؤلف قد استغنى تقريبا عن استعمال الهوامش .

ولكن « حرب الثلاثمائة » سيظل عمدة فى ميدانه الى وقت غير قصير ، فقد استعمل فيه المؤلف وثائق هامة ، وبوبه تبويبا سهلا ، ووحد فيه بين روح مؤرخ يبحث عن الحقيقة وروح سياسي وطني واثق من أنه وجد الحقيقة . فجاء الكتاب قطعة عمل هامة يجد فيها الباحث

المتخصص آراء مضيئة ويجد فيها الطالب والمثقف العادي مادة تستثير الذهن وتلهب العاطفة وترسم الاتجاه (1) .

1 ـ هذه الكلمة منشورة فى (المجاهد الثقافي) عدد 8 ، جوان 1969 .